المقـدمـــــــــــــة

لـمـاذا أُوقظت الحروب من سُباتها ؟

حتى لا يأتي يوم أسود آخر يغزو فيه الفقراء والمعوزون والمحاصرون
مدائن الصحراء ويصنعون من حلي نسائها تعويذات لطرد الأرواح الشريرة ..
يوم دا مْآخر لا يتردد فيه أحد عن
الالتحاق بموكب غزو الكويت ثانيـــــــــةً ..

(1)

ما أقرب صورة يمكن رسمها للكارثة التي حلّت بالعـراق .. وما الجزء المقتطـــــــــع من الأحداث .. وماذا كان ينبغي أن يقـــــع ولم يقـــع.. ولماذا لم يقع ؟ وهل كان يمكن أو ينبغي تحاشـــي الذهاب إلى الكويت وبالتالي تحاشي الخوض في الحرب ومواجهة العالم ؟ وعلى ماذا اعتمدت القيادة العراقية ؟ .. وهل هناك من ضللهـا أم أنها هي التي ضللت حلفـــاءها المباشرين واستدرجتهم إلى مأزق تاريخي كبير .. ؟

على الدوام .. ثمة أسئلة بلا أجوبة .. أو أن أجوبتها ستظل ناقصةً تنتظر تفاصيل أخرى قد تضاف إليها بعد عقدْ آخر من الزمان أو أكثر..لقد أجبــتُ في كتــب ســـابقة عن بعض هذه الأسـئلة، لكن الذي كتبتُـه من قبل لم يــروه بعد ظمأ الأسئلـــة كلها..

تخرج المعلومات هنا من أطراف ألسنة الشـــهود والمخططين والمنفذين ومن صفحات الوثائق التي يحرص واضعوهـــــا على إبقائها طيّ الكتمـــان لعقدين أو ثلاثة عقود من الزمان على الأقل، ولا شك أن أخطر ما يتصدى له الكاتب هو التعامل مع معلومات ما زال الشهود عليها والمعنيون بها قادرين على منع ظهورها و ملاحقة ناشريها وإيذائهـم، لذلك فإننا مُلْزَقيــون في أُتـــون لعبـــةْ خطرة وعالية الكلفة..

وفي جانب آخر لا أجد نفسي مستاءً من أن كتبي ما تزال تُمنع في معظم الدول المعنية بموضوعاتها، ربما لأن أحداً لا يريد أن يرى الحقيقة كلها، ويفضل الإنتفاع من جزءْ منها فقط ولذلك فإنه يتعامل مع المعلومات والوثائق بأسلوب الإنتقاء ويرفض إلتقاء الأضداد في موضع واحد من الزمان و المكان.. إن كل طرف معني بجزء من الحقيقة ولا يحتمل أن تُقدم روايتها كاملة، حتى ليبدو أن الجميع مشتركون في الإثـم بدرجات تتفاوت على حسب حجومهم وقدراتهم..

..بعد ذلك وقبله فإن هذا الكتاب يستغرق في وقائعية شبه مطلقة، يبتعد عن التنظير حتى ليبدو أشــبه بمحاولة لـملء الفراغات وتعبئة الفجوات التي تخلّفت عن كارثة الدخول إلى الكويت بأعلى قدرْ من المعلومـــــــــات أمكن التحقق منها بعد ست سنوات من وقوعهـــا..

(2)

لطالما قبلتُ الفكرة التي تبناها المتفائلون بأن الواجب الأخلاقـــــي للكتّاب والدعاة هو بث الآمال وإنعاشـــــــها في مراحل الإحباط وتحت ظلال الكوارث، غير أن ذلك لا يبرر محاولات تجميل الفجيعـــة وإحالة الهزائم على الأرض إلى إنتصارات على الورق لأن ذلك سيغدو تسطيحاً للوعي العام وسيوصد الأبواب أمام محاولة تقديم وصفْ صحيح لما حلّ بالعـــــراق والبلدان العربية الأخرى من جراء قرار دخول الكويت بالأسلوب و التوقيت الذي جرى به ، ومن غير هذا التوصيف لما حدث لن يُتاح إنقاذ ما تبقى مما يمكن إنقاذه.

جيلّ يخرج من حربين خلال عقدْ واحد من الزمان ليتحمل تبعات الفواجع وتفتت البنية النفسية والأخلاقية والإجتماعية لعوامل كثيرة كان في مقدمتها أنّ غزو الكويت بحد ذاته قد صدم المجتمع لأنه بدا صراعاً بلا مسوغات فكرية ولا دوافع عصبية، فالعـــراق والكويت ينتميان إلى حاضنة واحدة في نشوئهما العصبي والمعنوي وكانا على الدوام أقرب إلى الإلتحام منه إلى التنازع، كما أن هذا الحدث قد صدّع جزءً من الموانع الأخلاقية والنفسية السائدة .. إذْ ما معنى أن يُرغم المجتمع كله على تقفي خطوات أولئك المتريفين الذين جاء في بالهم يوماً أن يقرروا دخول مدن الآخرين ويستبيحوا أمنهم ليجعلوا من طبائع حياتهم البدائية المتخلفة قاعدة في تأسيس علاقة المجتمع العراقي كله بالعالم الخارجي .. ؟ .. أي أنهم نقلوا نمط علاقات السطو المباحة في المتخلف من قراهم ليصبح قاعدة في علاقة دولة متحضرة كالعـراق مع العالم الخارجي .. ثم حصل في أثناء ذلك ومن بعده تصدّعّ وتخلخلّ قيمي رافقته ونشأت عنه شبكة معقدة من الظواهر النشاز بدءً من تداخل المال العام والخاص، وغياب المُثل العليا، وإستسهال اللجوء إلى العنف، والرغبة في السطو على حقوق الآخرين، وسيادة القيم المادية، وتخلخل الثقة بالنفس والعالم الخارجي، وارتضاء الجلد الجماعي للذات، وحلول حكم العائلة بدل حكم الدولة، واستلاب المجتمع لمؤسسة أمنية طاغية، وغياب الدور المركزي للدولة وفقدانه في الريف وفي جنوب البلاد وشمالها، وتسلل الفساد إلى القضاء والشرطة والجهاز الإداري

والتعليم، وإنهيار الأمن الإجتماعي، وتراجع التأهيل الصحي وتلوث البيئة ونشوء جيل ناقص التغذية، وهجرة النخبة، وتراجع التعليم وغياب المعلومات وطغيان خطاب سياسي وإعلامي ساذج.. وإنهيار الإقتصاد إلى الحد الذي سيتحمل نتائجه جيلان آخران على الأقل.

إن الذاكرة الشعبية التي ظلت تستذكر واقعة (الفرهــود) التي جرى فيها نهــبّ وســلب على نطاق واسع قبل أربعة عقــود من الزمان، باتت تترقب قدوم (فرهود) جديد اعتقد الجمهور أنه اندثـــــر إلى الأبـد ليبقى مجرد ظل قاتم من حكاية شعبية موروثة ومندرســــة وأنه لن يعود ليمثل حيــاً مرة أخرى كما هو الحال بعد إنهيارات الحرب حين غدا المجتمع كله في إنتظار ملاقاة (فـرهـــــود) كان المقصود من إستذكاره ، من قبل ، حض النـــاس على التكتل والتضامن لئلا يصبحوا ضحية ذلك الوحش الإجتماعي البغيض ، غيرأن هاجس انتظار هذا الوحش بات يأكل من بنية ما تبقى من الاطمئنان الاجتماعي بسبب فقدان الكوابح المعنوية التي تقاوم الخطأ و الخطيئة.

فمنذ ذهب أولاد العائلة والوزراء ووكلاؤهم والمديرون العامون يبحثون عن ما يختطفونه من أملاك الآخرين في الكويت أُجيز للفرهود أن يعود ثانيــــة إلى مجتمع لم يعد يرى مثلاً أعلـــــى يحتذي أثره ويتخذه قياساً في السلوك.

أليســت هذه هي الفجيعـــــة بعينـــها ؟ ...

فهل يظل الواجب الأخلاقي بعدئذٍ هو بثّ الآمال وإنعاشها وتجميل الفجيعة بدلاً من وصفها وتحديد المتسببين في وقوعها ؟

الواجب الأخلاقي هنا، إذن، هو أن نمضي في رواية ما حدث وصفاً للفجيعة .. وحصراً للمسؤولية التاريخية عنها دفاعاً عن حق العراق في أن يكون قوياً وموحداً ولتبرئة شعبه من الأخطاء التي ارتكبتها قيادته السياسية في إحدى مراحل الصراع على المنطقة ..

(3)

–" عندما لا يبدو أن أمامنا معارك معلنة اليوم .. فإن هناك معارك محتمة ستقع غداً."

بهذه الكلمات أجاب السيد صدام حسين عن سؤال وجهته إليه سنة 1976 حول جدوى إرسال أعضاء حزب البعث وموظفي الدولة إلى مهمات عسكرية في المناطق الحدودية يوم لم يكن العراق منغمراً في أية معركة بعد أن هدأ القتال في شمال البلاد إثر إتفاقية لتنظيم العلاقات العراقية الإيرانية وقعها السيد صدام نفسه مع شاه إيران الراحل محمد رضا بهلوي في الجزائر (شهر آذار من عام 1975) وبعد أن مرت ثلاث سنوات على حرب تشرين أول "أكتوبر" 1973 بين العرب وإسرائيل .. والأهم من ذلك فإن السؤال كان موجهاً إلى رجل لم يكن يومها رئيساً للدولة بل كان الشخص الثاني فيها بصفته نائباً لرئيس مجلس قيادة الثورة لكنه من الناحية الفعلية كان الشخص الأول الذي يقف خلف السياسات الأساسية في العراق بما فيها رسم خطط التعبئة العامة والتجنيد العسكري.

يومها شرح بإسهاب معنى إرسال المدنيين إلى مهمات عسكرية في زمن لم تكن فيه ثمة حروب قائمة أو محتملة فقال : الحروب الآتية ليست محتملة .. بل إنها محتمة .. فمنذ علّمنا الأستاذ ميشيل عفلق (مؤسس حزب البعث) السير على هذا الطريق في العمل السياسي لم نعد نعرف العيش بدون صراعات .. وإذا كنتپ لا ترى من جانبك معركة قادمة .. فإنني أراها من المكان الذي أتطلع منه إلى أنفسنا والعالم .. لكنني لا أستطيع أن أحدد من أي اتجاه ستكون هذه الحرب الآتية .. أو ضد من ستقع.

بعد أربع ســـنوات من ذلك اللقاء انفجرت الحرب مع إيران لتخلّف وراءها مليون ضحية خلال ثماني سنوات من القتال ..

لقد جرى إرسال الجنرالات مع جنودهم إلى إيران مستخدمين خرائط سياحية لتدلهم على أهدافهم بعد أن ارتضى الرئيس صدام خيار الحرب من بين سلسلة خيارات أخرى للتعامل مع التحديات والاخطار التي أثارتها إيران ضد العراق منذ سقوط الشاه سنة 1979.

والغريب في الأمر، أنّ الحرب كخيار بديل عن الدبلوماسية في الصراع مع العالم الخارجي، لم يكن موجوداً في إرث الفكر الإجتماعي المعاصر في العراق كما تدل عليه أفكار رواد هذا الفكر من أمثال ساطع الحصري وعلي الوردي، بل على العكس فقد نحا المفكرون الإجتماعيون إلى رد

السلوك العنيف إلى مصادره في المتخلف من القيم السائدة ورفضوا قبوله كنمط في العلاقات داخل المجتمع العراقي ودعوا إلى إحلال السلم الإجتماعي لكي ينتج تلقائياً سلاماً مع العالم الخارجي، لكن المشكلة هي أن السياسيين من صانعي الحروب لم يخرجوا من جبة هذا الإرث، بل جاءوا من حاضنة المتخلف من القيم الإجتماعية التي قاومها دعاة التنوير والإجتماعيون العراقيون ..

(4)

حاولتُ جاهداً بعد إنتهاء حرب الخليج إستنطاق الأشخاص الذين كانوا حول الرئيس خلال اتخاذ قرار الذهاب إلى الكويت ثم أداروا معه الصفحات التالية من الصراع، إذْ لا يعقل أن يتحمل شعب كامل تبعات سياسات هشـــة صنعها أولئك الذين دفعت بهم صدفة تاريخية إلى الخط الأمامي من العمل السياسي مستخدمين سلاحين لفرض أدوارهم على الآخرين .. الأول : القوة والقســـر .. والثاني : تغييب المعلومات عن الجمهور.

ووجدتُ في ردود أفعال أولئك الذين كان ينبغي عليهم أن يعترفوا بأدوارهم ما يثير الدهشة، إذْ تهرب بعضهم من المواجهة في حين تهافت آخرون على معالجة المعضلات الفنية واستغرقوا في بحث التفاصيل لإلقاء تبعات الكارثة على أسباب بعيدة عن أصل القرارات التي اتخذوها وأعنى بذلك ابتداع معركة غير مسوّغة باتخاذ قرار الدخول إلى الكويت وفتح المواجهة على مصاريعها مع العالم الخارجي، ومن أمثلة ما حصلت عليه خلال رحلة (حصر المسؤولية) أن السيد عزة إبراهيم الذي يُفترض أنه الشخص الثاني في سلُم المسؤولية، تهرّب من الإجابة عن أسئلة مكتوبة، وأبلغني عن طريق مساعديه (أن المعركة لم تنتهه وعندما نحقق النصر الكامل سنكشف عن الحقائق كاملة) بعد أن وجد أنه ملزم ببيان ما ترتب عن دوره في ثلاث مهمات كرست فشل السياسة العراقية .. المهمة الأولى عندما زار السعودية في 30 تموز "يوليو" 1990 للقاء الشيخ سعد العبدالله ولي العهد الكويتي في مدينة جدة .. والثانية يوم الرابع من آب "أغسطس" عندما ذهب إلى السعودية ومصر كحامل رسائل أصم ولم يكن ليقول سوى أنه غير مخول بالبحث في مسألة الكويت و انه مجرد ساعي بريد، والثالثة عندما عاد من طهران مستبشراً بعقد تحالف أوهمه أعداء الأمس أنه بات ممكناً ومتاحاً بين العراق و إيران.

في حين قال لي السيد طارق عزيز (لقد كنّا نعوّل على أمور كثيرة بما فيها الوعود التي أعطتها لنا بعض المنظمات الفلسطينية والعالمية لملاحقة الأهداف الأمريكيةوربما كان الإعتماد على تلك الوعـود في غير محله).

أما السيد طه ياسين رمضان فقال (إن إطلاق سراح الرهائن الغربيين كان قراراً خاطئاً وإنني أشعر بالأسف لأننا اتخذنا ذلك القرار، إذْ أن بقاء هم لدينا كان سيمنع الرئيس بوش من مهاجمة العراق).

غير أن الدكتور سعدون حمادي ذهب إلى تفسير آخر للواقعة عندما رأى (أن فرض الوحدة مع بلد عربي آخر بالقوة والقسر هو أمر مشروع وأن اللجوء إلى هذا الخيار في العمل الوحدوي قد تأخر كثيراً عن موعده من تاريخ العلاقة بين العراق والكويت) كما رفض حمادي الإعتراف بأن الوفد الذي ذهب إلى (جدة) أقام طروحاته مع الوفد الكويتي على طلب عشرة مليارات دولار غير قابلة للنقصان.

بكثير من البساطة .. كان الدكتور حمادي يبشر بعودة (البسماركية) بعد قرنين من سقوط شرعيتها في التاريخ، لأنه وجد أن العودة إلى شعارات الوحدة يقتضي إستخدام القوة لفرض نموذج جديد لعلاقات الوحدة بين العرب.

أما الرئيس صدام، الذي أُتيح لي أن أستمع إلى آرائه مباشرة في مناسبات متفرقة خلال الأزمة وبعد الحرب، فقد طلب مني التريث وعدم النشر ووعد بالكشف عن أسرار كبيرة في يوم من الأيام .. وأتهمني بعد مباشرتي عرض أسرار إدارة الحرب من جانب القيادة العراقية بأنني (متعجّل ... و .. وربما إستدرجتني قوى دولية لأفعل ذلك .. و ..).

والمثير حقاً أن الرئيس وعدداً من أعضاء القيادة العراقية ما زالوا يعتقدون حتى بعد ست سنوات من الخوض في المواجهة مع العالم الخارجي أن ما يحدث في إطار الحملة ضد الحكومة العراقية هو مجرد نتاج حرب إعلامية ونفسية هائلة إلى الحد الذي أطلق فيه الرئيس

وصف (الجهجهون) على الضخ الإعلامي الذي سلُط على الجمهور العراقي .. والجهجهون كلمة لا معنى لها في القاموس وهي ليست من المفردات المتداولة في اللهجة المحلية إلا بمعنى الإشارة إلى السلوك والكلام غير المنطقيين أو المألوفين، ولعلها نمط من كلمات تصف حالة تتجاوز القياسات التي يكون في المقدور التعامل معها، ويجمع مستخدموها حروفاً من كلمات عدة للخروج بمفردة مهّجنة وغير مألوفة .. مثل الجهجهون.

إنّ كلمةً أخطبوطيةً من هذا النوع هي أشبه ما تكون بوصف لحيوان أسطوري بات العراقيون يقابلونه من حيثما استداروا، فهو غول إجتماعي يفتح شدقية لإبتلاعهم في الداخل، وهو الغول نفسه الذي يتشهى إذابتهم في أحواض (السيانيد) ويلقى بهم إلى أفواه الكلاب لتنهش أجسادهم وهم أحياء عندما يكونون خصوماً سياسيين.. وهو أيضاً العتمة من خارج الوطن حيث يلقون عقاباً جماعياً يطبق السقوف على قاماتهم ويعاقبهم على هوية إنتمائهم للنوع العراقي..

فالكلمـــــــة التي لا قاعدة لها هي نتـــــاج زمن يخلو السلوك السياسي فيه من المنطـــــــق والحكمة .. والتسامح ..

لكـــن الـــذي نضعه اليوم من تاريخ العراق ليس جزءً من هـــذا (الجهجهون) .. بل هو شهادة على زمن أصبحت فيه هذه المفردة مقبولة ومتداولة مع أنها لم تلد من رحم اللغة وقانونها .. لكن ما الذي كان يمكن إنتظاره في دولة يحرم فيها تدفق المعلومات، لأن البوح بها يعادل فيها إثم التمتع بالحرية في العمل السياسي .. ولا يقتصـــر حجب المعلومات عن الشـــعب .. بل حتى عن أكبر المسؤولين في أجهزة الدولة .. بل وعن الجنرالات الذين يكلفون بخوض الحروب ..

أهي دولـــــــةُ اللا يعلـــــم .. ؟

.. دولة يستمع فيها وزير الدفاع خبر دخول القوات المسلحة إلى الكويت عبر الإذاعة .. ويُستدعى رئيس الأركان بعد سبع ساعات من بدء العمليات ليأخذ علماً بما وقع .. ولا يعلم مدير طيران الجيش بالحدث إلا بعد وقوعه .. ويُعتقل مدير التوجيه المعنوي لسخريته من طلب قيادته العامة رفع معنويات الجنود ..

دولة لا يعلم فيها نائب الرئيس متى بدأت الحرب .. ولا يدري رئيس الأركان ما الذي كان يجري على الخطوط الأمامية خلال الحرب .. ولا يعرف قائد القوة الجوية أن الطائرات ستُحطم على الأرض في حين كان يتعهد بأن ذبابـة لن تخترق أجواء العـــراق ..

دولة يؤدي فيها وزير الإعلام صلاة الشكر قبل اثنتي عشرة ساعة من بدء الحرب لأنه أعتقد أن الحرب لن تقـــــــع .. ويذهب الوفد العسكري للتفاوض في صفوان ولم يكن يعرف قبل ساعة من الموعد أنه ذاهب إلى ذلك اللقاء .. لأن الوفد الأصلي الذي كُلف بالمهمة لم يجد وسيلة لوصول مكان الإجتماع .. دولة يُقال فيها مدير الأمن العام من منصبه لأن الرئيس لم يستطع العثور عليه خلال الحرب، كما لم يكن يعلم أن معظم وزرائه قد هربوا من بغـــــــــداد ..

دولـــة .. ذهبت طائراتها إلى إيران .. وما زال معظم قادتها العسكريين لا يعرفـــــون كيف تم ذلك ..

إن الشعب لا يعلم .. طبعاً ..

لكن الوزراء وأعضاء في مجلس قيادة الثورة ووزير الدفاع ورئيس الأركان ومدير طيران الجيش .. والطيارين .. كلهم لم يكونوا يعلمون ما الذي يحدث أيضاً ..

كل الجنرالات لم يكونوا على علم بما كان يحدث ..

فمينْ الذي يعلم في دولة اللايعلـــم .. ؟

هـــذا الكتاب يسعى للإجابة عن هذا السؤال : من كان يعلم ؟ .. ومن يتحمل المسؤولية ؟ .. من صنع القرار ؟ .. ومن تبعه إلى منتصـــف الطريق ؟ .. ومن مضى فيه حتى النهاية .. ؟

إذا كان الجنرالات آخـــر من يعلم ..

فمن الذي كان يعلم في عصر (الجهجهون) إذن ؟

(5)

إذْ يتناول هذا الكتاب ما يمكن عدّه أداءً فنياً ضعيفاً في تنفيذ عملية الثاني من آب 1990 وما تلاها من أحداث ووقائع، فليس المقصود من ذلك إلقاء تبعات الكارثة على التنفيذ وإعفاء التخطيط من المسؤولية التاريخية عما حدث، وسيكون من التزوير الذهاب إلى هذا المستوى من التفسير، فالأداء السلبي في التنفيذ يعكس أمرين .. الأول : هو أن المنفذين تعمدوا في الكثير من المواقف إظهار عدم الحماس كتعبير سلبي عن رفضهم ومخالفتهم للأوامر التي كانت تصدر من جهات صنع القرار في العراق، أي أن أولئك المنفذين (الجنود والمهندسون والاقتصاديون والإعلاميون والدبلوماسيون) وهم شرائح أساسية من المجتمع كانوا يعكسون بالتنفيذ الضعيف روح المقاومة السلبية التي تنطق هنا بتمنياتهم في فشل القرار السياسي، ولم يكن أمامهم لإفشال ذلك القرار إلا الذهاب إلى مخالفة سلبية يعكسها غياب روح الحماس والتعمد في إظهار العيوب والتنصل من كل ما كانوا يستشعرون أنه سيُسجل عليهم تاريخياً من مواقف، وكان الشعور العام في البلاد ينحو إلى حصر المسؤولية وهو ما يعبر عنه الشائع داخل المجتمع من أقوال ومفاهيم على غرار (إن على من يريد أن يكون بطلاً أن يذهب ليقاتل وحده لا أن يأخذ شعباً مسلوب الإرادة معه) (وإن الذين اتخذوا قرار الذهاب الكويت وحدهم دون إستشعار رأي الجمهور ينبغي أن يتحملوا لوحدهم أيضاً تبعات قراراتهم) (لقد تحمل الجيش والشعب فوق طاقتهما في حرب السنوات الثماني مع إيران وحان الوقت ليتحمل صانعو الحروب قسطهم من أثقالهـــــا ..) وغير ذلك من مفاهيم كانت ملتقى تشكّل الرأي العام الخائف والصامت داخل العراق، ولذلك لم يكن ليصدر عن المنفذين غير ذلك الأداء الذي اتسم بالسلبية والرفض، وكلما كانت إدعاءات العزم ومظاهر التبجح بالقوة تتواتر عبر أفواه صانعي القرار كان الجمهور (والمنفذون جزء منه) يتخندق في اللامبالاة وعدم الإكتراث ليظهر التناقض بين أدائه ومشاعره في جانب وبين صيحات المتجبرين الذي أيقظوا الحروب السابتة في غير موعدها وأستحلوا المغامرة والمقامرة على حســـاب الشعب ومن رصيـــــده.

إنّ أمامنا شعباً مبدعاً،ينتمي إلى إرث عريق في البناء والتحضّر، لذلك فإن وجود مبدعين في مختلف حقول المعرفة والعلوم التطبيقية هو نتاج الخبرات الجماعية المتراكمةللشعب منذ سبعة آلاف سنةونتاج حركة النهضة التي بدأت منذ مطلع القرن العشرين،ولا ينبغي احتسابه على حصة حكومة استمرت عقدين من زمنْ تسيدّته الصراعات والحروب.

(6)

ثمـة إشـكاليـة تتعلــق بالمصطلـــح..

فقد احتملت احداث الثاني من اب " اغسطس" 1990 أوصافاً شـتى عكست رؤىً سياسية مختلفة ، ففي الوقت الذي أطلق فيه الرئيس صدام وصف يوم (النداء) على ذلك الحدث في محاولة قصد منها أنه استجاب إلى نـداءْ مـا فأصدر أوامره إلى قوات الحرس الجمهوري لعبور خط الحدود وإكتساح الكويت ، وخُيـل للوهلة الأولى أنـه كان يعني بـ (النداء) الطلب المنسوب إلى إنقلاب وهمـي أُعـلن عن وقوعه في الكويت يوم الثاني من آب ، غير أنه عمل جاهداً على تصحيح ذلك المفهوم بتكرار القول إنه استجاب لنـــداء إلاهــي ولإرادة ربانيـة عندما خاض غمار تلك المغامرة المكلفة ، بينما كان وصف (الغزو) هو الأكثر إنتشاراً لتقريب صورة ما حدث ، غير أن (الغزو)كمصطلح كان يحتمل تفسيرين.. الأول هو التشبه بالغزوات التي عرفها التاريخ العربي والإسلامي وكانت مدخلاً لإتساع رقعـة الدولة العربية الإسلامية ولذلك فإن هذا المفهوم ينطوي على معنـىً رســـالي مسـتحب ، في حين ينطوي التفسير الآخر في المتداول من الأدب السياسي المعاصر على معنى

الإحتلال والضم بالقوة وهو وصف يُقصد منه نفي شرعية العمل نفسه كأسلوب في العلاقات بين الدول.
كما استخدم مصطلح (الإجتياح) لوصف الحدث بقصد تفسير درامية الوقائع من جهة والإشارة إلى الطابع التدميري للعملية من جهة أُخرى. وكانت للحكومات مصطلحاتها كما للجمهور مصطلحاتة أيضاً، وبدت المسافة واسعة بين واحد وآخر..فالحدث حمل وصف (الوحدة) لدى طرف ووصف (العدوان) لدى طرف آخر..وما بين الوصفين كانت مفردات (الثورة، الغزو، الإكتساح ، الضم ، الازمة ،الإحتلال ، عودة الفرع إلى الأصل ، الإجتياح ، الكارثة ، الزلزال).
في الهزيمة ينتكس مصطلح ويتراجع ..لذلك فإنّ بين المصطلح المهزوم والمصطلح الدارج مسافةً كافية للبحث عن مفردات لا تفرض ولا ترغم وهو ما يستغرقني للعثور على مفردات تتيح للقاريء التمتع بحق الإستنتاج بكثير من الإسترخاء في مسألة يخلو البحث فيها من الهدوء والطمأنينة..وهي في كل الأحوال واقعة مُدانة ومرفوضة في مقدماتها وحيثياتها ونتائجها ..

(7)

لا يفوتني التوكيد مجدداً بأنّ معالجة الأخطاء والخطايا التي رافقت عملية الكويت سنة 1990 لا يمس بأي حال من الأحوال ثبات الحقوق العراقية في إتجاهيين : الأول حق الإطلال على البحر ..والثاني حق معالجة الإنحرافات في إقتسام التراب مع الكويت. وهما حقان يمكن تسويتهما بوسائل سلمية لا تلزم البلاد التورط في حرب خارجية من النوع والحجم الذي نشأ عن قرار الثاني من آب، وطالما أن هذا الكتاب لا يعالج مسائل الحقوق فقد أكتفي بهذا التوكيد لتثبيت حقوق عراقية راسخة ستظل يقظة لسنوات طويلة بعد أحداث 1990 كما كانت يقظة لقرن كامل من الزمان قبل ذلك التاريخ .. وسيبدو أي مساس بهذه الحقوق نمطاً من أنماط الإخضاع القسري لشروط الإذعان التي ترتبت عن الحرب بما فيها الترسيم المجحف للحدود وما نشأ عنه من إستلاب لحقوق عراقية جديدة وخاصة في ميناء (أم قصــر) والساحل البحري ومكامن النفط ومديات الحــــدود ..

..وفي هذا ليس لنا غير التعامل الشفاف مع عقل جمعي يخزّن مــرارة الغبن والعزلـــة في العـــراق..
إذ من السذاجة حقاً تجاهل خطورة هذا التخزين الذي يعتمل في العقل الجمعي العراقي، خاصةً عندما يتعلق الأمر بشعور متراكم بالغبن نشأ عن محاولات متعمدة للحط من شأن النوع العراقي كله على خلفية إجتياح الكويت في الثاني من آب 1990، حيث جرى تعميم في التعامل مع العراقيـــين بقصد تحميلهم مسؤولية ما حدث وما يترتب عنه من نتائج ، ولم تفلح كثيراً المحاولات المضنية التي تُبذل للفرز بين الشعب والحاكم.. ولم نتردد من الإشارة دائماً إلى أن السلوك السياسي الذي تحكّم بإدارة الشؤون العامة في العراق في العقدين الأخيرين لم يكن ليعكس الخصائص الطبيعية في الشخصية العراقية ، و أن العراقيين أنفسهم قد عانوا من هذا الأداء السياسي وأستهجنوه ونظرت إليه نخبتهم الفكرية على أنه نقيض للقيم الإجتماعية الوسط التي تنأى عن العنف وترتضي التسامح وتبحث عن حلول وســط، لا بل إنّ نخبة العراق لم تــرب في ما فعله الحاكم غير نوع من إرغام المجتمع على تقفي سلوك المتريفيين الذين أرادوا أن يجلعوا من مزاج القرية المتخلفة المعزولة المرتابة التي خرجوا منها قانوناً يحدد شكل العلاقة بين العراق والعالم الخارجي في حين كان هناك حكام لدول أخرى يشجعون أولئك المتريفيين الذي استبدوا بالعراق في أوقات كان العراقيون يقاومون فيها الخلل في نظام القيم السائد والذي نجم عن سيطرة حفنة صغيرة من شريحة إجتماعية مرتابة بالشؤون العامة للبلاد .. فكيف يحق بعدئذْ أن يُعاقب العراقيون من قبل هؤلاء الحكام أنفسهم على خلفية قرارات اتخذتها تلك الحفنة من الأشخاص .. حتى بدا أن هناك عملاً منظماً في جانب وعشوائياً في جانب آخر بقصد الحط من قيمة الشعب العراقي ومنزلته ، عدا عن تكريس شعوره بالغبن من جراء فرض رسم جديد للحدود أُنتزعت فيه أجزاء أُخرى من ترابه الوطني في ميناء أم قصر وضاقت به إطلالــــة العــــراق على البحـــــر بنسبة الربع عما كانت عليه قبل الثاني من آب 1990.

لقد حدث مراراً أن شـجعنا بعض الشخصيات من الإتجاه القومي في الكويت على القيام بمبادرات خاصة نحو شعب العراق تنأى عن محاولات التمييز بين طوائف الشعب وأعراقه ، وتحتوي الأثار السلبية للإساءات التي صدرت ضد الشعب العراقي ..ففي حين كانت السلطات الكويتية تمنع تداول المسموعات العراقية من أشرطة الأغاني، سمحت برواج واسع لأغانٍ تنال من كرامة المـرأة العراقية وشرفها وسمعتها ، و تعـالت من صحيفة كويتية صيحات تدمـير العراق حـجراً إثر حجـر ، وإنطوت بعض الأعمال المسرحية الكويتية التي عالجت أحداث الخليج على إهانة علنية للنوع العراقي ومحاولة تصغير شأنه، عندما جرى الخلط بين الحاكم والمحكوم في العـــــراق.

إننـــا إزاء علاقـــة ذات إشكالية معقدة، وسنحتاج إلى عمل مركّب وصبور لتبرئتها من هذه التراكمات التي تحفر عميقاً لدى متلقيها من العراقيين .. فالعراق جـارٌ بـاقٍ في موضعه وهو لن يجد خلاصه إلا في وحدتـــــه كشعب وتراب، وبدلاً من التلويح لأجياله المقبلة بعقاب دفع التعويضات عما حدث، يتوجب الإعلان صراحةً بأن هذا الشعب براء من دينٍ يلف عنقه منذ الآن، فلن يجرؤ سياسي في أي نظام سياسي مقبل في العراق على الرضوخ لهذا العقاب الجماعي المنتظر بعد عقاب الحصار بكل قسوته وإستهانته بالشعب العراقي ..

وإذا لم يبدأ عمل مبكر منذ الآن، يعوّض عن هذه الأخطاء ويصححها فإنّ مسألة الكويت قد تصبح عنواناً لقضيــة وطنيـة عراقيــة ستتبارى بعض الأحزاب والقوى الإجتماعية والفكرية على إظهار إهتمامها بها في العقود المقبلة عندما لا يجد السياسيون مرة أخرى، موضوعاً شاغلاً، أكثر تفجيراً للمخزون من مشاعر الغبن وسلب الحق ، غير العلاقة مع الكويت .. إذ لن يعود هناك إهتمام بدور عراقي في صراع عربي إسرائيلي كما كان الأمر في العقود الخمسة الماضية، ولن تكون الخلافات مع إيران سبباً لحرب جديدة ،كما لا يبدو أن هناك صدامات مقبلة مع تركيا .. وآنذاك فإنّ العلاقة مع الكويت ستبدو أكثر شأن محفّز للعمل ..

أفيتحدثون بعدئذٍ عن بـحر من الـدم لا يستطيعون عبوره مع شعب العـــراق .. وبحر آخر من الكراهية يحجز بينهم وبين شعوب ودول عدّوها أعداء إلى الأبد .. ؟ إن بحر الدم لم يكن بين شعب العراق وغيره، لكنه كان بين حُكام تحالفوا يوماً ثم انقلبوا على بعضهم البعض في يوم آخر .. ولذلك فإنّ من يريد جعل هذه الكراهية سداً مانعاً أمام شعب العراق يكرس العزلة على نفسه ويرتضي دفع إستحقاقات كبيرة أمام شعب يختزن المرارة من حكم يستبد به ويقامر بمصالحه وجـــار يستهين به ويحاول الحط من شأنه ..

إنّ من الصعب التفريق بين (أشرار) و (طيـبين) في الحيز المتاح من تاريخ الصراع على المنطقة ، بل من السذاجة الذهاب إلى مثل هذا المنحى من التمييز، فقد برهنت أحداث أزمة الخليج ثم ما أعقبها من سياسات الإنتقام أن من المستحيل العثور على مثال صالح يرد على المثال الخاطئ، فقد تقاسم المتخاصمون العيوب، في حين كان كل منهم يتظاهر بأنه الأفضل في حمل مواصفات البديل الصالح .. وإزاء وضع مُضبّب من هذا النوع، لن تكون محاولتنا توثيق ما حدث سبباً للمجاهرة ببراءة أحد عن طريق تجريم طرف واحد بعينه .. فقط.

أما الأمر الآخر الذي لا يفوتني التنبيه إليه فهو يتعلق بمستقبل خيارات الشعب العراقي، إذ أنّ روح المقاومة للحكم الذي ورط البلاد في سلسلة الكوراث التي حلّت بها، لا تلغي نـمو نزعة مقاومة إذلال هذا الشعب وقواه الإجتماعية والفكرية من جانب الذين انتظروا طويلاً حدوث خلل في تاريخ العراق للإنتقام منه وتصفية ثأرات عالقة على حساب وحدته الدستورية أو دوره الحضاري والثقافي أو حقه في النمو الإقتصادي، وقد تتمخض معاناة شـعب معاقـــب بالهوية عن تيارات أكثر حدةً وإلتمـاعـاً في المستقبل تتكرس فيه المشاعر المغلقة التي تنشأ تحت وطأة العــزل والإحساس بالغبن والـرغبة في رده.

ولا بد، في هذه الحالة ، من التفريق بين شعب أبـيّ وحكم مهزوم قامر بمصير هذا الشعب وفرط بمصالحه العُليـا .. وعندما لا يحصل هذا التفريق .. فإنّ يوماً دامياً آخر قد يتكرر في التاريخ على خلفية آثارشروط الإذعان وإقتطاع أجزاء من التراب الوطني العراقي وحرمان العراقيين من حقهم في الإطلال على البحـــر ومحاولة النيل من النوع العراقي على الهويـــة ..

ويحق لشعب العـــراق أن ينتظر من يعتذر منه لا من يشـمتُ به ويحـط من قدره حتى لا يأتي يـــوم أسود آخـر يغزو فيه الفقـــراء والمعوزون والمحاصـرون مدائن الصحـــراء ويصنعون من حُلي نسـائها تعـويذات لطرد الأرواح الشـريرة .. يـوم دامٍ آخـر لا يتردد

فيه أحد عن الالتحاق بموكب العـــودة لغزو الكويت ثانيــةً ..

(8)

إنّ لدى الرئيس صدام حسين شعوراً عميقاً بأنه أكثر إقداماً وأشد عزماً من الآخرين، وأن التمسك بهذا العنصر، أو حتى الإيحاء به في حالة غياب العزم أو ضعفه، هو أمر كافٍ بنتائجه لإرغام منافسه على التراجع أمامه .. فهو يفضل إشاعة هذا الانطباع عنه لدى خصومه .. ومن كان في موضع الحليف أيضاً .. سواء كان هناك عزم حقيقي أم لم يكن .. وقد نجحت هذه الفرضية مرات كثيرة في الصراع داخل العراق، ضد الخصوم السياسيين من أعضاء حزب البعث وأعضاء الحركات السياسية الأخرى، ولطالما فاجأ الآخرين بأنّ رده على أية محاولة منهم لإظهار (الإقدام) ضده ستُقابل بعشرة أضعافها من القوة، وكان هناك لجوء غير مقيد إلى القسوة بدا دائماً خارج المألوف من القيم الإجتماعية السائدة، فإذا حدث أن شخصاً تحداه، بقولٍ نُسب إليه، أو عمل سري كان يستهدف مكانة الرئيس ودوره السياسي، جاء رد الفعل نحو ذلك الفرد عارماً، لا يكفي أن يُقتل، فقد تقطع جثته ويُمثل بها، وتنمحي داره عن وجه الأرض، بعد أن يُقتل أولاده أمام نواظره، ثم يسمح بتمرير رواية ما حدث إلى الجمهور لخلق رادع نفسي عام يذكّر بأنّ هذا المصير سيواجه أي شخص يكون في مثل حالته، وهو أمر خلق رعباً جماعياً، وأحال مشاعر الإحترام من جهة والمحبة من جهة أخرى إلى مشاعر خوف جماعية .. مادام الضحايا يُغيّبـون في لحظة ثم ينتهون إلى مثل تلك المصائر دون أن تعرُف الأسباب الحقيقة لهما حدث، ولطالما واجه ضباط في الحرب العراقية الإيرانية عقوبات الإعدام وطُردت عوائلهم من منازلها وصودرت أموالهم، ثم لم يلبث أن صدر قرار رئاسي يقضي (برد الإعتبار إلى الضحـــايا) وكأنهم تعرضوا لكل تلك العقوبات قبل أن يجري التحقق من الـتُهم المنســـوبة إليهم.

وكــان تعليــق الدكتور علي الوردي، أكبر علماء الإجتماع في العراق، مثيراً حقاً، فقد كنتُ أمازحه أحياناً وأسأله عن سبب خوفه وتردده في إظهار آرائــه السياسة بعد أن كان قد تجاوز الثمانين من العمر فأراه يجيبني : كيف لا أخاف من أشخاص خائفين .. إن ما يجعلك تشعر بالإطمئنان هي حالة واحدة، لا يكون فيها الذين يقررون مصيرك في حالة شعور بالضعف والخوف .. أما إذا كانوا تحت وطأة هذا الشعور فإنّ قسوتهم في الرد عليك هي أكبر من أن تكون موضوع قياس أو تحديد.

فعلى الرغم من كل مظاهر التفوق على الخصم بعد إنتهاء الحرب مع إيران سنة 1988، كانت هناك تراكمات تكرّس الشعور بالضعف والخوف، ثم لا تجد سبيلها في التعبير عن نفسها في غير القسوة وإظهار (العزم)، فخلال سنتين تلتا وقف إطلاق النار مع إيران وسبقتا دخول الكويت جرى إعدام عشرات من العسكريين (الذين كانوا قد مُنحوا في الحرب مع إيران طواقم من أعلى أوسمة البطولة) بتهمة الإنضواء في مستويات أولية من التنظيم السري ضد الحكم، وكانت كلمات التذمر أو الملاحظات التي يبديها أشخاص في حالة الغضب، أو النقد الذي يُوجه لقرارات أو مواقف، كافيةً لتلبس (تهمة العمل على قلب نظام الحكم) شخصاً بعينه ثم مجموعة من الأشخاص كانوا أصدقاءه أو أقرباءه لأنهم إستمعوا إلى بعض آرائه أو أن أحدهم ضحك يوم أصغى إلى كلمات ساخرة ضد الحكم صدرت عن جليس عابر ..

كما أن الشعور بالضعف وما يتولد عنه من خوف كان شعوراً مركباً، إذْ عدا عن التحفظ التلقائي على طموحات العسكريين والحذر منهم بعد أنْ عادوا من الحرب مع إيران، بدا أن هناك مشكلات إقتصادية جدية تحتاج إلى خطط بعيدة المدى لإستيعابها، فقد خلّفت تلك الحرب ديوناً فعلية أخرى دفترية وباتت الحاجة إلى إشعار الجمهور بثمرة الخروج من الحرب طاغية على الجميع، إذْ ما معنى أن تنتهي تلك الحرب ثم تتناقص القدرة الشرائية للفرد، ولا يكون هناك سلام إجتماعي ؟ .. الجريمة بدأت بالإزدياد، وحالات البطالة عن العمل إزدادت على نحو غير مسبوق، وبقي ربع مليون جندي على الأقل في حالة معلقة، بين الإستمرار في أداء خدمة الإحتياط في الجيش أو العودة إلى مجتمع مدني لم يكن يروي ظمأهم إلى ما كانوا ينتظرونه من عيش مستقر إقتصادياً وإجتماعياً .. فهل تبقى هذه الزيادة في عدد الجنود حملاً على الجيش أم تتحول إلى عبء على المجتمع ؟ وإزاء غياب تخطيط إقتصادي هادئ، يتحرر من السيطرة البغيضة للدولة على النشاط الإقتصادي، كان

الشعور بالخطر يتكرس بما صار يُعرف بوجود مؤامرة إقتصادية خارجيـة .. مع أنّ الأمر في حقيقته هو غير ذلك، فالتنافس بين الدول المنتجة للنفط لم يكن وليد سنة 1990، وإستهداف كل دولة لأخرى أو مجموعة دول لمجموعة دول أخرى، كان قد شكل ما عُرف بسياسة الإستقطاب داخل منظمة الأوبك، وكان الطبيعي أن يتأقلم العراق مع حالة الشدّ والإستفزاز التي كانت الكويت طرفـاً رئيساً فيها، لا بل إنّ سياسة موثوقة ودبلوماسية ذكية وتخطيطياً إقتصادياً صبوراً لا يبحث عن نتائج باهرة وسريعة، كانت سترغم الموقف الكويتي السالب على التحول من عنصر إختلاف إلى عنصر تعاون مع العـراق .. كان ذلك ممكناً في حالة واحدة : هي أن لا تُنقل السياسات السائدة في الداخل عند التعامل مع المواطن المحلي ومع الخصوم السياسيين، لتكون قاعدة في التعامل مع الآخرين في الخارج عند معالجة حالات الإختناق والشد والضغط والضغط المقابل ..

لذلك فإن إظهار (سياسة العزم) كانت مطروحة للإيحاء والضغط على الكويت في الفترة ما بين السادس والعشرين من حزيران "يونيو" 1990 إلى يوم السادس عشر من تموز "يوليو" 1990، فقد شعر الرئيس صدام، عندئذٍ، أن إظهار العزم وحده لم يكن ليغير مواقف الكويت في المجال الإقتصادي، مع ما رافق تلك اللحظة من شحنات التخويف التي حملتها (معلومات عن ضربة إسرائيلية محتملة على غرار الهجوم الجوي على مفاعل تموز النووي سنة 1981 أكدها سفراء عراقيون كانوا على إتصال مع بعض أجهزة المخابرات الغربية ..)

إن إحدى لحظات الشعور العميق بالخوف ستتمخض عن قرار تحريك الجيش إلى معركة غير منتظرة لدخول الكويت ووضع العالم أمام متغير معقد ، ولعله أراد في جانب من دوافع القرار معاقبة الذين امتنعوا عن إظهار فروض الطاعة ولم يعترفوا للرئيس بدوره من حكومات دول أخرى، تماماً كما حدث آلاف المرات مع الضحايا من مواطني العراق ومثقفيه وسياسييه ونخبته الطامحة الذين اعتقد الرئيس أنهم لم يعترفوا بالمطلق لدوره ومكانته ..

وكـان إحتساب رد الفعل بعد دخول الكويت قائماً هو الآخر على إفتراض (أن الصدمـة ستمنع الآخرين من التورط في الصراع خشية وقوع مفاجآت ربما ستكون أكبر من إحتلال الكويت نفسها) بمعنى الإيحاء بأنّ ما حدث في الساعات الإثنتى عشرة الأُولى من يوم الثاني من آب "أغسطس" 1990 هو مجرد بداية، وأن هناك امكانات غير منظورة قادرة على القيام بما هو أكبر من ذلك، غير أن حقيقة الأمر كانت مختلفة تماماً عن ذلك الإيحاء بالقوة، فما حدث، يومئذٍ، كان من نمط الأعمال القصوى، وكان تطوير ذلك العمل (بالإعتماد على إستجابة الجمهور داخل العراق وعلى العوامل السياسية المتاحة في الوضع الإقليمي والدولي وعلى القدرات الحقيقية للجيش) ضرباً من الإيهام .. فقد جرى بعد الثاني من آب تجميع قوات الإحتياط المنهكة التي لم تكن قد تمتعت ببضعة أشهر من الراحة بعد إنتهاء الحرب مع إيران، وهي قوات مثخنة بجراحات تلك الحرب، تجاوز معظم عناصرها الثلاثين من العمر، وكانوا قد ودعوا العسكرية على أمل أن لا يعودوا إليها ثانية، أما برامج التسلح التي تعتمد على التجميع في الداخل، فكانت مرتبطة بما سيرد من قطع غيار ومعدات من خارج البلاد، هو أمر بات معلقاً بعد فرض الحظر الدولي على التعامل مع العراق، حتى من أقرب حلفائه يومئذٍ الإتحاد السوفيتي السابق .. أما الوضع المعنوي للشعب فقد تحدر دفعة واحدة إلى أدنى مستوياته بسبب الخشية من عواقب القرار الكارثي في دخول الكويت .. ومع ذلك كان هناك تشبث بالإيحاء بأن ثمة (قوة كامنة) لم تظهر بعد، وأن ما خرج إلى العلن هو الظاهر من جزء أكبر ما زال غاطساً.

وأظن أن على الكثير من السياسيين والمثقفين والمحللين أن يعترفوا بأنهم كانوا ضحية ذلك الإيحاء وكانوا في إنتظار خروج (قوة كامنة) لم يتردد الرئيس صدام من الإشارة إليها سراً في لقاءاته مع الزعامات السياسة العربية وعلانية أمام الجمهور المحلي والعربي.

وأذكر أن الرئيس صدام كان يردد في لحظات النشوة بُعيد إنتهاء الحرب مع إيران : المهم أن يفهم الجميع أننا أقوى منهم ... ولا يهم أن نكون أقوى مادياً وفعلياً .. المهم هو إشعارهم بأننا الأقوى ..

وأيام كانت المجلات الغربية تتحدث عن القسوة في العراق، وتصف الرئيس بأنه (قصـاب بغـداد) لم يجد كبار منظرّي الدبلوماسية والإعلام من طراز السيد طارق عزيز غير القول : بأن صـورةً من هذا النوع لا تفزعنا .. المفزع هو أن يتكون إنطباع في العالم بأننا نظام ضعيف

.. لتكن لنا صورة نظام قاس ْلا يرحم .. فهذا أفضل من صورة نظام ضعيف لا يتهيب منه الآخــــرون.

• • •

.. وأستمر الإيهام على نحو آخر مختلف ..

كانت المشكلة التالية في مراحل التعامل مع قرارات مجلس الأمن (بدءً بقرار فرض شروط الإذعان 678 الذي صدر في نيسان ّإبريل ّ 1991) هو إيهام الآخرين بأن صاحب القرار في بغداد ما يزال هو الأكثر عزماً وهو الأقوى دائماً، وقد تحول ذلك إلى إيهام للذات، ثم فُرض لإيهام الجمهور المحلي .. فالهزيمة باتت نصراً .. والوطن المرشح للتقسيم صار هو البلد الأكثر تماسكاً من أي آخر سواء .. والقيادة المعزولة عن جمهورها أضحت السلطة الأكثر صلة بشعبها .. والإمتثال للقرارات التي تثلم السيادة الوطنية أمسى عملاً وطنياً بارعاً .. إن ما كنا نراه من شعارات تبشر بالعدل والرفاهية، ومظاهر توحي بالقـــوة هو مجرد قشــــرة ملونـــة تخفي في داخلها حشوة صغيرة وهزيلة .. ولا تكاد تمس سطح هذه القشرة حتى تندلق منها كتلة مفتتة من رمـــاد وتـــراب ..

وهكذا .. لم تعد ترى من يعترف بأن الهزيمة قد حدثت مع أن كل حي وساكن في العراق كان يئن من نتائجها المذلة .. عدا أفراد قلة كانوا ما يزالون يصنعون السياسة بالإيهام والإيحاء وأفتراض أن (العزم) هو في القسوة وعدم إحترام إرادة الآخرين تاركين الجمهور يجثو على ركابه في تعلق يائس بلقمة أو إشارة تعده بيوم آمن .. وهو يوم كان يبتعد إلى المستقبل المجهول الذي تمضي إليه سفينة حُمِّلت بشعب كامل من الرهائن .. فإما أن يغرق هذا الشعب مع قبطان السفينة .. أو أن يتحررا معاً.

• • •

إننا أمام حرب ســــــابتة جرى إيقاظها في غير زمانها وغير مكانها، ربما تكون قد تأخرت ربع قرن، أو تقدمت ربع قرن من الزمان، لكنها في كل الأحوال، كانت حرباً ممنوعة ارتمى فيها اليائسون من السلام .. إنهم أولئك الذي تحول فشلهم في إدارة الحياة العامة في ظل السلام إلى دافع لإبتداع حـــرب ْغير مسبوقة في مكانها وتوقيتها وأسلوبها .. وهي حربٌ أفسدت المقامرة فيها شـــفافية الإحســـاس بالحريـــة والأمـن .. والجمـــال، وعادت بالشعوب إلى قرون القطيع.

حـــربٌ لم يؤمن الجنود بجدوى خوضـــها .. ولم يفهم الجنرالات أســـــباب وقوعها .. بعد أن فاتهم معرفة موعـدها ..